

الكرمل الجديد

كلمة أولى

ما بدا في أوائل الربيع أفقاً ينفتح على احتمال الحرية، يكاد يغادر خريف العام نفسه مصحوباً بأسئلة كثيرة، ومخاوف، وآمال ما تزال طرية وطاقية. لم تكن الثورة المضادة قد أطلت برأسها بعد، ولم تكن المجابهات الدامية بين أنظمة استبدادية وشعوب تطلب الحرية قد وصلت إلى ما نراه اليوم في سورية.

ولا نملك، هنا، أكثر من الاحتكام إلى نصيحة ذهبية من إدوارد سعيد مفادها: كلما اشتد الضباب يجب أن نعود إلى الأفكار الأساسية والواضحة. ومن الأفكار الأساسية والواضحة أن ما حدث ويحدث هذا العام يفصل بين مرحلتين تاريخيتين في العالم العربي، بين ما أصبح في حكم الماضي، ولكنه لم يمض تماماً، والجديد الذي لم يولد بعد.

نحن، إذاً، في مرحلة انتقالية. وهذا يفسر لماذا يزداد الضباب. فقوى الاستبداد، التي أصابتها الموجة الثورية الأولى بلطمة مفاجئة، تلتقط الآن أنفاسها، في محاولة للحفاظ على مواقع لم تفقدها بعد، أو لاختطاف ما حققته الموجة الثورية الأولى في أماكن أخرى. وفي هذا السباق على الجائزة تختلط الأوراق، وتتقاطع المصالح، وتتكاثر الرؤى والاستيهامات، في لحظة فريدة ونادرة.

ما حدث ويحدث في العالم العربي يمثل محاولة لتحقيق العقد الاجتماعي الجديد، مرفوعاً على قيم إنسانية، وتطلعات ديمقراطية، وعلى شوق يكاد يكون مرضياً للحرية والكرامة، بالمعنيين الفردي والجمعي.

لذا، ومهما تعددت التسميات، فإن المجابهة الحالية لا تحمل تسمية أوضح من الصراع على طبيعة وهوية العقد الاجتماعي الجديد. سنشهد انتصارات وخيبات أمل كثيرة في قادم الأيام، وربما حتى أواسط هذا القرن. ولكن، بالعودة إلى الأساسي والواضح، فإن الشوق إلى الحرية والكرامة هما ضمانتا الباحثين عن ضوء في أفق اشتد فيه الضباب.

أخيراً، تحية إلى أرواح الشعاعين الفلسطينيين طه محمد علي، ويوسف الخطيب، والمؤرخ اللبناني الكبير كمال صليبي. غادرنا هؤلاء في الآونة الأخيرة، لكنهم تركوا ميراثاً من الإبداع والمعرفة يحفظ لهم مكانة يستحقونها في المشهد الأدبي والثقافي، وفي الذاكرة.